ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Assis. lectu. Ahmed Jasim Mahan

Assis. lectu. Abd Alsattar Hasan Alsa'ady

Ministry of Education General Directorate of Education in An-Najaf Al-Ashraf Province

Email:
Ajj1133078@gmail.com
Sattar78093@gmail.com

Keywords:

Existence, the problem of existence, William James, philosophical problems, metaphysics.

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 25.Apr.2024

Accepted 4.Jul.2024

Published 15.Nov.2024

The problem of Existence in William James's philosophy An analytical study

A B S T R A C T

Existence constitutes an important pillar in philosophical research. Existence ((ontology)) is one of the three areas of philosophy, along with knowledge ((epistemology)) and values ((axiology)). There are many branches in this field. At one time, existence is viewed in terms of its principles, and at other times through its sensory-perceivable assets, that is, with its two major parts, nature and what is beyond it.

In this research, we study the problem of existence and its connection with nothingness, as discussed by William James in the third chapter of his book ((Some Problems of Philosophy)), which he titled ((The Problem of Existence)). Here, James limited himself to examining the problem in terms of its relationship to nothingness, trying to investigate what was said philosophically regarding the explanation of existence, how it came to exist after it did not exist.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol57.Iss1.3960

مشكلة الوجود في فلسفة وليم جيمس دراسة تحليلية

م.م. أحمد جاسم محان م.م. عبد الستار حسن عبد الستار
وزارة التربية / مديرية التربية في محافظة النجف الأشرف

المستخلص

يشكّل الوجود ركيزةً مهمّة في البحث الفلسفي، فالوجود ((الأنطولوجيا)) أحد مجالات الفلسفة الثلاثة إلى جنب المعرفة ((الإبستمولوجيا)) والقيَم ((الأكسيولوجيا)). وفي هذا المجال تفرّعات عديدة، فمرّة يُنظر إلى الوجود من حيث المبادئ، تارةً من حيث طبيعته، وأخرى من خلال موجوداته المدرَكة حسّياً، أي بقسميه الكبريين طبيعياً.

وفي هذا البحث ندرس مشكلة الوجود وارتباطه بالعدم، كما بحثها وليم جيمس في الفصل الثالث من كتابه ((بعض مشكلات الفلسفة)) والذي عنونه بـ((مشكلة الوجود)). فقد اقتصر جيمس هنا على بحث المشكلة من حيثية علاقتها بالعدم، محاولاً استقصاء ما قيلَ فلسفيّاً بخصوص تعليل الوجود كيف حدثَ بعد أن لم يكن.

الكلمات المفتاحية: الوجود ، مشكلة الوجود ، وليم جيمس ، مشكلات فلسفية ، ميتافيزيقا.

المقدّمة:

إن مبحث الوجود وإن تناوله الباحثون بكثرة، إلا أن البحث الفلسفي يختلف من حيث المناهج الفكرية المتبنّاة في سبر غور هذا المفهوم الأوسع موضوعيا من حيث الانطباق على كل المفاهيم الموجودة في عالمنا، ومن حيث مقابلته لنقيضه المباشر العدم، ففلسفات قديمة ووسيطة وحديثة ومعاصرة تناولت هذا المفهوم بمعناه الكلي الشامل بدءا من بارمنيدس المؤسس الأول للبحث الميتافيزيقي المستند إلى المنطق، وانتهاءً إلى المنهج البراجماتي الذي خصّصنا له هذا البحث، باعتبار وليم جيمس أبرز رواد هذا المنهج المعاصر، ومن هنا تبرز أهمية بحث هذا المنهج في دراسة هذا المفهوم، وشخصيته الرائدة، الذي نظر إلى الوجود بطريقة استقصائية شاملة لكل المناهج الدارسة لهذا المفهوم، في كتابه ((بعض مشكلات الفلسفة)) ، فقد استوعب فيه بحثاً دقيقاً شاملا لم يأت بمثله في بقية كتاباته، وهذا ما دفعنا إلى تحليل ما عرضه في كتابه هذا. محاولين الإجابة عن تساؤلات هي: ((كيف صنّف وليم حيمس مناهج البحث الفلسفي لمفهوم الوجود؟))، و ((كيف نظر وليم جيمس إلى المنهج التجريبي بوصفه منتميا في براجماتيته إليه؟))، و ((هل حافظ وليم جيمس على النسق البراجماتي في بحثه مفهوم الوجود أم شابه شيء من التوجه التجريبي؟)).

مشكلة البحث: يمكن صياغة مشكلة البحث بالقول: إن وليم جيمس في بحثه مفهوم الوجود لديه مشكلة منهجية خالف فيها توجهه التجريبي وانتقل فيها من بحث الوجود إلى الموجود فكيف خصل هذا ولماذا؟

فرضية البحث: نفترض في بحثنا أنّ وليم جيمس اضطر إلى الانتهاء عاجزا عن الوصول إلى نتيجة في بحث الوجود بما هو وجود بسبب قصور المنهج البراجماتي، لعدم تماشيه مع التوجه التجريبي الذي يدرس الموجود لا الوجود.

منهج البحث: استعنّا في دراستنا بالمنهج التحليلي وهو المنهج الأسلم لفهم الوجود بوصفه مجالاً ميتافيزيقياً. فضلاً عن مناسبته لفهم محاولات تعليل الوجود بصورة دقيقة.

أولاً: مشكلة الوجود ولغز العدم

يبتدئ وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠م) بمشكلة الوجود، مبيّناً أنّها ((أسوء مشكلة ممكنة)) . ويذكر أنّها تعني ((كيف أنّ شيئاً ما خرج إلى الوجود)) (جيمس، ١٩٦٢، ص٤١).

يعزي جيمس مشكلة الوجود إلى شوبنهاور، فهو يربط بين الوعي ومقدار الحيرة أمام لغز الوجود، إذ كلما ازداد الإنسان وعيا ازداد سؤاله عن الوجود والعكس صحيح. هذا التساؤل يتوصل من خلاله الإنسان الواعي إلى أن العدم ليس فقط يساوي الوجود بل يفضله. يضيف جيمس إلى قول شوبنهاور، أن التأمل لا يدفع الإنسان إلى الاندهاش من سبب وجود شيء ما، بل يندهش من أن هذا الشيء الموجود نفسه لابد أن يوجد، ولا سبيل إلى معرفة السبب إذا لا طريقة لعبور العدم إلى الوجود (جيمس، ١٩٦٢، ص ٤٢).

إنّ فلسفة شوبنهاور بترجيح العدم على الوجود، مرجعها إلى غايته الفلسفية التي تهدف إلى التحرر من الإرادة، والخلاص من دائرة الشقاء، فهو بسبب تأثره بالبوذية، يرى أن الوجود لا متناهٍ وسيبقى الإنسان في عجلة مستمرة من الوجود، ما لم يصل إلى التحرر من الإرادة والانتهاء إلى العدم. إذ إنّ شوبنهاور يربط بين السعي لتلبية الاحتياجات والمعاناة من خلال النضال، فإذا تعطل النضال لتحقيق هدفه المؤقت بسبب عقبة، فإن ذلك يعتبر نوعًا من المعاناة. وعلى الجانب الآخر، تحقيق الهدف المطلوب يعرف بالإشباع. ومع ذلك، فإنه يعتبر اشباعًا مؤقتًا غير دائم. فهو بداية لنضال واجتهاد جديد، ونحن نرى دائمًا نضالًا يتعرض للعراقيل ويتم منعه، وهذا يعتبر بالتأكيد نوعًا من المعاناة. ويتجلى هذا في كل مكان على أنه صراع وتنازع؛ وبالتالي، فإنه يبدو لنا دائمًا كمانحٍ للمعاناة، ومالم يكن للنضال هدفًا نهائيًا، فإن ذلك يعني أن المعاناة ليس لها حدود أو نهاية (شوبنهاور، ٢٠١٧، ص ٢٠٣-٢٠٤.)

فشوبنهاور ينتهي من خلال تجربته الطويلة التي يتحدث عنها إلى استنتاجٍ مفادُه أنّه بناءً على كثير من المعاناة الشديدة التي نشهدها في العالم، يمكننا أن نعتبر الحياة على الأرض فاشلة، وأن عدم الوجود يمنح الهدوء التام الخالي من الألم. ورغم أنّنا قد جرّبنا بعض الهدوء في حياتنا، إلا أنّنا ندرك بالتأكيد مع مرور الوقت أنّنا كلما عشنا أكثر، كلما أدركنا بشكل أوضح أنّ الحياة في المجمل خيبة أمل (شوبنهاور، ٢٠١٩، ص ١٤).

ويمكن وضع فلسفة شوبنهاور بهذا الخصوص في شكل استدلالٍ قياسي هذه صورته:

كل ما في الوجود معاناة وألم، لا شيء من معاناة وألم موجودٌ في العدم

إذن: لا شيء ممّا في الوجود موجودٌ في العدم

فالتحرّر من الإرادة التي هي جوهر الوجود هو ميلٌ إلى العدم وتخلّصٌ من سيطرة الإرادة، ومن هنا عدّ شوبنهور العدم أفضل من الوجود.

إنّ هذه الفكرة المركزيّة لدى شوبنهاور، مستمدّةٌ من الفلسفة البوذية، فبوذا نادى بحقائق أربع، وطريق خلاصٍ من المعاناة يتمثّل بالوصول إلى حالة العدم، إّ إنّ أهم ما تتأسّس عليه البوذية هي الحقائق الأربع التي شكلت بداية الاستنارة لبوذا، والتي جعلها بوذا منطلقاً لبناء فلسفته البوذية وهي التي عبر عنها بقوله:

١. الحقيقة المثلى الأولى : الولادة حزن، النمو شقاء، المرض آلام والموت عذاب، وإنه لمن المضني المؤلم أن نجاور ما لا نحب ونرغب فيه، وإنه لمن الحزن العميق أن نفترق عمن نشغف به حبا ونتحمل العذاب والقهر من أجله (إنجيل بوذا، ١٩٥٣م، ص ٤٧).
٢. والحقيقة الثانية: الألم وسببه الشهوة التي تكتنف العالم، إحساساً و استجداءً وعطشا، و تتطلب الإرواء من الأشياء التي تتراءى للذات وهذه كلها تعود إلى اللذة المرغوب فيها وهي سبب الأوجاع (إنجيل بوذا، ص ٤٧ نفسها).
٣. الحقيقة المثلى الثالثة: الإحساس بالحزن، ومن يقهر شهواته ويتغلب عليها يعد عظيما، لأنه يتحرر من القيود فلا يأخذه طمع أو بريق لذة (إنجيل بوذا، ص ٤٧).
٤. والحقيقة المثلى الرابعة: هي الممر إلى الإحساس بالحزن، و للذات التي تسعى وراء الحقيقة المجردة خلاصٌ إذا سلكت سبيل الصلاح ورفضت كل لذّة فالحكيم هو ذلك الذي يسلك الطريق المعبّدة بإخلاص فتفلت الذات من كل حزن وألم (إنجيل بوذا، ص ٤٧).

فهذه المبادئ كانت أول ما توصل إليه بوذا من تأملاته ولقّنه لأول تلاميذه وحواريه، من يبلغ المعرفة عبر هذا الطريق يتحرّر من الألم وفي الوقت نفسه يتحرّر من الولادات المتكررة على هذه الأرض (أي من التناسخ)، ويعيش حياة السكينة الدائمة (النيرفانا) (النشار، ١٩٩٨، ص٥٣).

ومن هذا يتّضح لنا أمرٌ مهمٌ، وهو مدى ارتباط الجانب الأنطولوجي للوجود بالجانب الشخصي لحياة الإنسان، فشوبنهور لم يصل إلى فكرة تفضيل العدم على الوجود إلّا من خلال فهم المعاناة وطريقة التخلّص منها، وبهذا فضل العدم الوجودَ، وبالطريق نفسه يمكن فهم ما قرأه جيمس من شوبنهور وهو استحالة معرفة سبب وجود الأشياء، فالعدم لا يمكن العبور إليه مسبقاً حتى نفهمَ سببَ وجود الأشياء قبل أن توجد. وواضحٌ أنّ شوبنهاور هنا يرى الوجود مسبوقاً بعدم، لكن من دون دليل يقدّمه، فقد خلا نتاجُه من هذا، إلا إن كان الأثر الديني للبوذية أو للمسيحية سبباً لتقديمه هذا.

فعلاً إنّ العدم لا يمكن العبورُ إليه لا بدءاً ولا انتهاءً، فحتّى تخيّلاً لا يمكننا الخروج من الوجود إلى العدم؛ فعلى الرغم من وجود مفهوم (العدم) كتصور، لكنه يستحيل أن نتخيل أنفسنا معدومين، فنحن في الحقيقة مشاهدون دوماً ويستحيل علينا تخيّل العدم طالما المتخيّل موجوداً كما يقول سيجموند فرويد (فرويد، ١٩٨١، ص ٣٢).

صحيح أن سؤال الوجود أعمق كثيرا من كل ما أثير من تساؤلات فلسفيّة كثيرة، لكنّ ما هو أعقد هو سؤال العدم لدينا، من أين جاءت فكرتُه لدينا وكيف أمكننا بمخيلتنا المحدودة ان نعبر حيّزَ الوجود الكلّي ونطرحها نقيضاً للوجود. وإن كان الوجود بديهي التعريف لتعايشنا فيه ووضوحه لنا، كتعريفه بأنّه كل ما هنالك، فربما يكون توصلنا إلى فكرة العدم من باب المقابلة، لكنها بالتأكيد مقابلة على مستوى عدم أشياء نعقلها كلا وجود كتاب كان عندي فاحترق وصار عدما بالنسبة إلي، أما فكرة العدم المطلق او العدم الصرف، المناقضة لفكرة الوجود المطلق، فهي لغز لا ندري من أين عرفناها. العلم اليوم ينفي فكرة العدم بمعناها الفلسفي ((اللاوجود)) أي النفي التام لأي وجود. فيقول العدم هو نوع وجود غير معين بالنسبة إلينا، أشبه بخواء كمومي عنه تحدث الذرات (كراوس، ص ٢٠١٥، ص٤٨).

لكن فلسفيّاً، فكرة العدم حاضرة، وهذا ما يعرضُ سؤالاً أصعبَ من مشكلة الوجود بمعنى تفسير بدئه بعد أن لم يكن _على فرض التسليم بأسبقية العدم– وهو سؤال أصعب والصياغة المختصرة له هي ((لِمَ كان الوجود وليس العدم؟)) وهو سؤال امتدّ بعد شوبنهاور إلى هيدجر وستيفن هوكنج (هوكنج، ٢٠١٣، ص ١٩)، ولورانس كراوس (كراوس، ٢٠١٥، ص ١٨٣)، وما زال وسيبقى، إذ لا تعليل للوجود في العدم.

ثانياً: الوجود الكلّي ووجود الجزئيات

يمكن تعريف الوجود الكلّي تعريفاً وصفيّاً "الوجود الشامل لكل شيءٍ مدرَكٍ من قِبَلِنا وغيرِ مدرَك، حتّى المتخيّل"، هذا الوجود الكلّي هو المقابل للعدم المطلق غير المخصّص بعدم شيءٍ دون شيء أو مجموعة أشياء دون أخرى من الموجودات ضمن الوجود الكلّي. إذا ما فهمنا هذا الفرق الواضح، يمكننا فهم ما يعنيه وليم جيمس، فهو عند معالجته لمشكلة الوجود وذكر المحاولات الفلسفية لحلّ مشكلة الوجود والعدم، يؤكّد أنّ من الفلاسفة من حاول الإسهام بحلٍ بهذا الخصوص، إلّا أنّ كل المحاولات المبذولة لحلّ هذه المشكلة عمدت إلى الحديث عن الفرق بين وجود جزئيات الوجود وعدمها، ولم تلحظ الوجود الكلّي وكيفية أنوجاده بعد أن لم يكن موجوداً أي معدوماً؛ إذ ما من سبيل لربط الوجود كله بعدم سابق.

ويذكر محاولاتٍ أربعة تنوّعت بين محاولةٍ تعدُّ الوجود أزلياً بلا بداية، والعدم باطلاً بمعنى أنّه غير سابق على الوجود ولا يمكن الحديث عنه وهو مذهب (بارمنيدس الإيلي)، ومحاولة تنطلق من التسليم بالعدم وتُفسّر ظهور الأشياء من العدم بتراتبيّة قوّة الوجود تصاعديّاً وتنازلياً، ومحاولة ثالثة تعدُّ الدهشة من الوجود _بهذا المعنى المذكور_ مرضاً، ومحاولة أخيرة غريبة تعتمد نمطاً ريّاضياً صوريّاً يعتمد على المزاوجة بين الصدق الرياضي والكهرومغناطيسيّة. ونحن ذاكرون هذه

المحاولات الأربعة بتحليلٍ لمضامينها، مقتصرين على تحليل المحاولتين الأوليتين فقط؛ لأنّ الأخريين من المحاولات ليستا فلسفيّتين؛ إذ المحاولة التي تعدّ التساؤلات بخصوص ألغاز الوجود مرضاً، اقتصر جيمس على ذكرها بقدرٍ قليل من دون اهتمام من قِبلِه، وهو مصيبٌ في ذلك، يكفي أنّ المتسائلين يُعدّون اليوم عباقرةً في كبريات الأكاديميات.

ثالثاً: الوجود ضرورة والعدم مستحيل

لعلّ أقدمَ فلسفة موثّقة تقضي بضرورة الوجود وأنّه موجود كلي، إذ الوجود في نظر بارمنيدس يُنظر إليه من جهتين: الوجود المُدرَك حسّيّاً، وهو وجود الظواهر الجزئيّة المتكثّرة وهو وجود سطحي غير حقيقي متغيّر، يقبع وراءه وجودٌ حقيقي ثابت كليّ هو الوجود الكائن المطلَق(كرم، ٢٠١٧، ص١٣٥).

فالوجود الحقّ هو الوجود المطلق المستدير. أمّا العدم فلا يمكن الحديث عنه بحسب بارمنيدس إذ الفكر يساوي الوجود ولا يمكن معرفةُ ولا التفكير في اللاوجود، كما يؤكّد في قصيدته على لسان الآلهة أنّ الوجود لم يسبقه عدم، ولو وُجِدَ في لحظةٍ ما فلِمَ في وقتٍ وُجِدَ دون غيره؟ وما الضرورة التي جعلته يوجد؟ (إمام، ٢٠٠٥، ص٩٦-٩٧).

وإذا ما تجاهلنا كارثة مزج الإطلاق بالاستدارة كصفتين للوجود، لبداهة أنّ الإطلاق لا حدّ له مستديراً أم غير مستدير، فيبدو من القصيدة أنّ بهذا المنطق البارمنيدي حتى الآلهة لا يمكنها حلّ مشكلة الوجود والعدم، فهي موجودة من دون أن تعرف كيف وُجِدت، أو أنّها موجودةٌ قهراً من دون اختيار. وعلى كلٍ فإنّ ما لم يُشر إليه جيمس هنا هو أنّ الضرورة مختَلفٌ فيها، فالتجريبيّون وكذلك إيمانويل كانط من المثاليين يعدّونها مقولةً عقلية، إذ لا وجود لها في الواقع الخارجي كالعليّة، إذ الضرورة علاقة منطقية وليست أنطولوجيّة، وهو الصحيح.

لكنّ وليم جيمس لم يُبدِ نقداً حقيقيّاً على هذه النظريّة رغم ما فيها، فلِمَ لا يكون حقاً الوجود موجوداً بلا بداية فحسب، ولا مجال للعدم؟ لكنّه يذكر كلماً مفاده "ولكنّك إذا نعتّ أي موجود بالأزلية، فإن بعض الفلاسفة يتأهّبونَ دائماً ليواجهوك في زجرٍ بالتناقض القائم في زعمك" (جيمس، ١٩٦٢، ص٤٤).

فالاعتراض هنا ينسبه إلى بعض الفلاسفة من دون تصريحٍ بأسمائهم، مع أنّنا لم نعثر على من هؤلاء الفلاسفة، ولا ندري لِمَ لم يذكرهم، وربّما هو فرضٌ ساقَه ضدّ هذه النظريّة. وعلى كلٍ فإنّ اعتراض الفلاسفة هذا يُبيّنه بقوله "فهم يتساءلون: هل الأزليّة الماضية قد اكتملت؟ فلابد أنّه كانت له بداية، إذ سواء أكان خيالُك يجتازه إلى أمامٍ أم إلى خلف، فإنّ لهذا الوجود مضموناً واحداً ومادة خاماً واحدة يمكن قياسها، وإذا كان مجموع القياس ينتهي إلى نهاية في طريق، فإنّه ينبغي أن ينتهي إلى نهايته في الطريق الآخر" (جيمس، ص ٤٤).

وكأنّ الأزليّة يمكن تقسيمها إلى أزلية ماضية وحاضرة، وهذا عجيب. إنّ فرض أزليّة الوجود واضح وهو أنّه من دون بداية. وهذا الاعتراض لا محلّ له ومع ذلك ساقه جيمس هنا. وهذا الاعتراض قريبٌ ممّا قاله بارمنيدس نفسه، عندما نفى أسبقية العدم على الوجود، ففي قصيدته يذكر بارمنيدس على لسان الآلهة أنّ الوجود لم يسبقه عدم، ولو وُجِدَ الوجود في لحظةٍ ما، فلِمَ في وقتٍ وُجِدَ دون غيره؟ وما الضرورة التي جعلته يوجد؟ (إمام، ٢٠٠٥، ص٩٧).

ومن هذا يتّضح أن لا صحّة لهذا الاعتراض، إلّا بالقول بقسمة الأزلية وأنّ لها نهاية، وهو غير صحيح.

رابعاً: قوّة الوجود وضعفه

حاصل هذه المحاولة أنّ بعض الفلاسفة من العقليين والتجريبيين، فسّروا الوجود بأنّه مسبوقٌ بالعدم، لكنّ هذه التوجّهات لم تنظر إلى الوجود ككل، وإنّما ناقشت وجود الموجودات الجزئيّة فقط، فكيف خرجت من العدم؟

يستعرض جيمس محاولتي كل من هربرت سبنسر(١٨٢٠-١٩٠٣م) وباروخ اسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م) باعتبارهما ممثّلين للتوجّهين التجريبي والعقلي، فسبنسر يرى أنّ ما هو أبسط هو ما جاء أولاً من العدم إلى الوجود، وهكذا فالأعقد

فالأعقد. فسبنسر بنظريته التطورية، يرى أن تطور الكائنات الحيّة حصل بالانتقال من المتجانس إلى المتنوّع، وعدّه قانوناً عامّاً في الطبيعة، فقانون الطبيعة عنده هو قانون للطبيعة، وهذا القانون يبدأ فيه كل شيء كظاهرة بسيطة، ثمّ تلتئم حولها ظواهر بسيطة أخرى فينتج مركّب أعقد فأعقد (كرم، ٢٠١٧، ص٣٨٣).

وواضحٌ توجّه سبنسر المادّي التجريبي، فهو حين يتحدّث عن الوجود إنّما يعني العالم المادي الفيزيائي فقط، ولا شأن له بوجود كلّي أو ميتافيزيقي بالمعنى الأفلاطوني مثلاً. ولعلّ جيمس قرأه هنا عادّاً التطوّر عنده قانوناً لأسبقيّة الوجود بالظهور من العدم، فأبسط الأشياء أولها ظهوراً وهذا صحيحٌ إلى اليوم، فعلى المستوى الذرّي يُعدّ وجودُ الأنوية سابقاً على وجود الذرّات مكتملةً، والذرّات على وجود الجسيمات وهكذا. ولم يتّحدث سبنسر عن خروجها من العدم، بل صنّف الموجودات من البساطة إلى التعقيد، بالمنطق الذي أوضحناه آنفاً.

أما اسبينوزا فيرى أن قوة وجود شيء ما مناطة بمدى كماله، فكماله ركيزة وجوده. ومن هنا تأتي الحجة الانطولوجية لتحتم وجود الله بسبب كماله المطلق، فقد وظّف اسبينوزا حجّة ديكارت التي تقضي بأنّ كلّما كان الشيء ذا حقيقةٍ أعظم، كان أقدر على الوجود، والله باعتباره كائناً لا متناهيا، فإنّ له قدرة غير محدودة على الوجود ومن هنا كان موجوداً بالضرورة(جيمس، ١٩٦٢، ص ١١٨).

هذا ما رآه اسبينوزا، ولم يأتِ في فلسفته على ذكر كيف خرج الجوهر الواحد إلى الوجود، بل هو موجود بالضرورة وكل الموجودات صفات له. فلا ذكر للعدم والوجود يتمثّل بجوهر واحد فقط. لكنّ جيمس وظّف قراءة اسبينوزا في حديثه عن لغز الوجود وعلاقته بالعدم. لكنّه ركّز على مشكلة الحجّة الأنطولوجية وهذا ما سنتناوله في الفقرة الآتية.

الحجّة الأنطولوجيّة

الحجّة الأنطولوجيّة Ontological Argument هي إحدى طرق الحجاج على وجود الله، من خلال استعمال مفهوم ((الله)) نفسه بوصفه الكائن الذي لا يمكن تصور أي شيء أعظم منه، فهذا المفهوم لابد أن يكون ما ينطبق عليه موجوداً في الواقع وليس فقط في الذهن، بسبب إن وجود مفهوم ((الله)) في الذهن فقط دون الواقع نقص، فإذن لابد أن يكون الله موجوداً (أنسلم، ١٩٧٨، ص ١٤٤).

يعبر عنها كانط بالحجة القبلية، وتسميةُ ((الأنطولوجية)) تعود إلى كانط نفسه فهو من سمّاها بهذا الاسم (ديكارت، ١٩٦٨، ص ١٦٠)، بمعنى أنها تتكون من أفكار عقلية سابقة apriori على التجربة، فهي خالية من أي مضمون تجريبي بعدي postriori مصدره من التجربة (كانط، ٢٠١٧، ص ٦٢٠).

تستند هذه الحجَّةُ الأنطولوجية إلى وحدة ماهية الله ووجوده، فالله خلافاً لكل الجواهر المتناهية التي ماهياتها تنفصل عن وجودها؛ تنطوي ماهيته على وجوده، بوصف الله كائناً له كلُّ صفات الكمال، فهو موجود وبخلافه لن يكون أفضل كائن ممكن، وقد ظهرت هذه الحجة مثلما هو معروف مع القديس أنسلم (١٠٣٣-١١٠٩م)، وإن كان أبو نصر الفارابي (٢٥٩-٣٣٩هـ) الموافق (٨٧٤-٩٥٠م) قدم قبل ذلك مضمون هذه الحجة نفسه بمسمى عُرف بـ((دليل واجب الوجود)) (الكوثر، ٢٠٠٢، ص ٧٠-٧٥).

لم تصادف هذه الحجة قبولاً من قبل رجال اللاهوت مع ظهورها، وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر تم دحضهما من قبل توما الأكويني، لتعود مجدداً مع فلاسفة الحقبة الحديثة، بدءاً مع ديكارت الذي قدمها مع بعض التعديل وأعلن قبولها (ديكارت، ١٩٦٨، ص١٦٠) ، ثمّ اسبينوزا وليبنتز وهيجل (رسل، ٢٠١٠، ص ١٧٧). وما زال الخلاف فيها إلى اليوم حاضراً، حول قبولها من عدمه، ويمكن القول إنّ الفلاسفة الذين قبلوها حجّةً سليمةً منطقياً-وليس بالضرورة واقعياً- تجذُهم يقبلون النسقَ الهندسي الريّاضي بطابعه المنطقي المجرّد. أمّ الرافضون لها فهم من أصحاب التوجّه الواقعي التجريبي بصورةٍ غالبة .(السعدي، ٢٠١٩، ص ١٤٠-١٤٥)

وأيّاً كان، فإنّ جيمس يؤكّد أنّ هذه الحجّة كمساهمةٍ في حلّ لغز الوجود، مختلَفٌ فيها بين الفلاسفة، ففيها ما فيها من ردود وتأييدات متعارضة. ثمّ يذكر جيمس أنّ هنالك محاولاتٍ غريبةً تفسّر صدور الموجودات من العدم تستتر بالصدق الصوري للرياضيات كما في هذه المعادلة $\frac{\text{صفر}}{\text{صفر}} = \frac{1-1}{1-1} = 1$ فبحسب هذه المعادلة يكون ناتجاً من قسمة الصفر على نفسه المساوي لقسمة الواحد المطروح من نفسه على العدد نفسه. فهذه العملية صحيحةٌ ريّاضيّاً، لكنّها لا تصحّ لتفسير الوجود كيف ظهر من العدم.

ويُلحظ على جيمس أنّه في هذه المحاولة، لم يذكر سببَ غرابتها، ألا وهو انفصال الصدق الرياضي الصوري عن الواقع، فليس كلّ ما يصحّ رياضياً يُفسّر الواقع. وهذه المحاولة كحال الحجّة الأنطولوجية من حيث الطابع الريّاضي.

من التعليل إلى التفسير

ينتهي جيمس بعد عرض تلك المحاولات، إلى إقرار استحالة الخروج من الوجود إلى العدم، فلا مهرب أمامنا للخروج من الوجود حتى نبحث عن إجابة، فيقر جيمس بعدم جدوى كل المحاولات، ويعلن استسلامه أمام هذا اللغز، ويقترح التعامل مع الوجود بالصورة الإدراكية الحسّية التجريبية، حيث ندرك من الوجود ظواهره ولا يمكننا التعمّق بما وراءه. ومن ثمّة ومن منطلَقٍ براجماتي ينتهي جيمس إلى أنّه علينا أن نتساءل عن طبيعة الوجود بدل محاولة تعليله.

وبكل روح علمية متواضعة يعلن جيمس ما أصبح سائداً بعده اليوم في الأوساط الفكرية المستندة إلى العلم، ألا وهو أنّنا لابدّ أن ندير دفّة السؤال من لِمَ إلى كيف، فهذا ما نقدر على البحث فيه والوصول إلى إجابات مقنعة (كراوس، ٢٠١٥، ص١٨٦).

والهدف النهائي من بحث جيمس لمسألة الوجود، هو طرح تساؤلٍ مفادُه ((كيف نفهم عملية النموّ في الوجود؟ هل جوهر الوجود يزيد كميةً حتى يصحّ الحديث عن النموّ، أم أنّ النموّ مجرّد تكرار لما هو موجود؟)) فالمادّة أو الطاقة أو الله لا يمكن القول بزيادته أو نقيصته، ومن ثمّة فالنموّ مدرَكٌ حسّي سطح، ولا يمكننا الغوص وراءه لمعرفة ما الوجود بمعناه الكلّي ومن الحكمة أن نحتفظ بكمّية الوجود في حقيقته ولا نقول بزيادته ولا بنقيصته (جيمس، ١٩٦٢، ص٤٨).

نتائج البحث

يمكن ذكر مجموعة من النتائج لما مرّ معنا آنفاً وهي:

١. يقتصر جيمس في بحث مشكلة الوجود على مشكلة حدوث الوجود من العدم، مسلّماً –متابعة لشوبنهور– بأسبقيّة العدم عليه.

٢. ينظر جيمس إلى محاولات الفلاسفة لحلّ مشكلة الوجود بالمعنى المحدّد، من منطلق التفرقة بين الموقف العقلي والتجريبي، لكنّه يرفضها جميعاً؛ فهي جميعها تعاني من عيبٍ جوهري يتمثّل بعدم إمكان عبور هوّة العدم حتى يُجاب عن علّة الوجود بمعناه الكلّي الشامل لكل الموجودات.

٣. يُلاحَظ على جيمس أنّ قراءته للمحاولات بمجملها تعاني من هناتٍ، تتضح عند التدقيق في كلمات الفلاسفة أنفسهم، إذ إنّ العدمَ لم يُلحظ في كلمات الفلاسفة المذكورين، لكنّ جيمس يقحم محاولاتهم ضمن قراءته لحل كيفية ظهور الموجودات بعد أن لم تكن، ونحن لا نعني استحالة قراءة تلك المحاولات كقراءة جيمس، إلّا أنّ القراءة فيها تجييرٌ واضح ليتناسب ما قالوه مع غرض جيمس.

٤. يعرب جيمس عن منهجيّة ملائمة يقترحها للتعامل مع الموجودات باعتبارها أجزاء للوجود، وليس الوجودَ ككل، ألا وهي المنهجية التجريبية الحسية، التي نقتصر فيها على معرفة ما نتناوله بحواسّنا فحسب، ولا جدوى عملية من الغوص وراء ذلك.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب المقدّسة:

بوذا. (١٩٥٣). *إنجيل بوذا*. (ط١). (عيسى سابا). مكتبة صادر.

المصادر والمراجع:

١. إمام، عبد الفتاح.(٢٠٠٥). *مدخل إلى الميتافيزيقا*. (ط١). الإدارة العامّة للنشر.
٢. أنسلم. (١٩٧٨). *آمن كي تتعقل*. (ط ٢)، (حسن حنفي). ضمن: (نماذج من الفلسفة المسيحية). مكتبة الأنجلو المصرية.
٣. جيمس، وليم. (١٩٦٣). *بعض مشكلات الفلسفة*. (ط١). (محمد فتحي الشنيطي). المؤسسة المصرية.
٤. ديكارت. (١٩٦٨). *مقال عن المنهج*. (ط ٢). (محمود الخضيري). دار الكتاب العربي.
٥. رسل، برتراند. (٢٠١٠).المجلد الثاني. *تاريخ الفلسفة الغربية*. (ط١). (زكي نجيب محمود). الهيئة المصرية للكتابة.
٦. السعدي، عبد الستار (٢٠١٩). *وجود الله في فلسفة أنطوني فلو. (ط١)*.مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة .
٧. شوبنهاور. (٢٠١٧). *العالم إرادة وتمثلاً. (ط١)*. ج١ الوجه الأول. (سعيد توفيق). المركز القومي للترجمة.
٨. شوبنهاور.(٢٠١٩). *تهمة اليأس*. (ط١). (الطيب الحصني). دار الرافدين.
٩. فرويد، سيجموند. (١٩٨١). أفكار لأزمنة الحرب والموت. (ط٢). (سمير كرم). دار الطليعة للطباعة والنشر.
١٠. كانط، إيمانويل. (٢٠١٧). *نقد العقل المحض*. (ط١). (غانم هنا). المنظمة العربية للترجمة.
١١. كراوس، لورانس. (٢٠١٥). *كون من لا شيء*. (ط١). (غادة الحلواني). منشورات الرمل.
١٢. كرم، يوسف. (٢٠١٧). *تاريخ الفلسفة الحديثة*. (ط١). هنداوي للنشر.
١٣. الكوثر، منذر. (٢٠٠٢). *فلسفة الفارابي*، (ط١)، دار الحكمة.
١٤. مصطفي، النشار. (١٩٩٨). تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، (ط١). ج١. دار قباء للنشر والتوزيع.
١٥. هوكنج، ستيفن. (٢٠١٣). التصميم العظيم. (ط١). (أيمن أحمد عياد). دار التنوير.

List of sources and references

Holy books:

Buddha. (1953). Gospel of Buddha. (1st edition). (Issa Saba). Sader Library.

Sources and references:

1. Imam, Abdel Fattah. (2005). Introduction to metaphysics. (1st edition). General Administration of Publishing.
2. Anselm. (1978). Believe so you can be wise. (2nd edition), (Hassan Hanafi). Within: (Models of Christian philosophy). Anglo-Egyptian Library.
3. James, William. (1963). Some problems of philosophy. (1st edition). (Mohamed Fathi Al-Shaniti). Egyptian Foundation.
4. Descartes. (1968). An article about the curriculum. (2nd ed.). (Mahmoud Al-Khudairi). Arab Book House.
5. Russell, Bertrand. (2010).Volume Two. History of Western philosophy. (1st edition). (Zaki Naguib Mahmoud). Egyptian Writing Authority.
6. Al-Saadi, Abdul Sattar (2019). The existence of God in the philosophy of Anthony Flew. (1st edition). Ain Center for Contemporary Studies and Research.
7. Schopenhauer. (2017). The world is a will and a representation. (1st edition). Part 1, first side. (Saeed Tawfiq). National Center for Translation.
8. Schopenhauer (2019). Charge of despair. (1st edition). (Al-Tayeb Al-Hosni). Dar Al-Rafidain.
9. Freud, Sigmund. (1981). Thoughts for times of war and death. (2nd edition). (Samir Karam). Dar Al-Taliah for Printing and Publishing.
10. Kant, Immanuel. (2017). Criticism of pure reason. (1st edition). (Ghanem here). Arab Organization for Translation.
11. Kraus, Lawrence. (2015). Create from nothing. (1st edition). (Ghada Al-Halwani). Sand publications.
12. Karam, Youssef. (2017). History of modern philosophy. (1st edition). Hindawi Publishing.
13. Al-Kawthar, Munther. (2002). Al-Farabi's Philosophy, (1st edition), Dar Al-Hekma.
14. Mustafa, Al-Nashar. (1998). A History of Greek Philosophy from an Eastern Perspective, (1st ed.). C1. Dar Quba for Publishing and Distribution.
15. Hawking, Stephen. (2013). Great design. (1st edition). (Ayman Ahmed Ayad). Dar Al-Tanweer.